الاراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

عندما كان الدكتور عبد الأمير العبود وزيراً

(الحلقة الاولى)

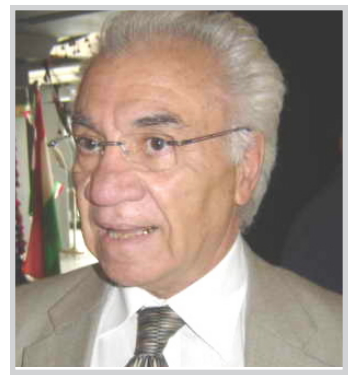

كاظم حبيب
كاتب سياسي - المانيا

صدر في عام ٢٠٠٧ عن "دار ورد الأردنية للنشر والطباعة" في عمان العاصمة كتاب جديد للأخ الأستاذ الدكتور عبد الأمير رحيمة العبود تحت عنوان " عندما كنت وزيراً "، علماً بأن عنوان الكتاب بمسودته الأصلية التي اطلعت عليها قبل نشره كان "من خزين الذكريات"، وهو عنوان مناسب لمضمون الكتاب وللخبرة والمعرفة التي يقدمها لنا الكاتب والتي اختزنها طوال العقود السبعة من عمره.

يتضمن الكتاب مقدمة وثلاثة فصول، يحمل الفصل الأول عنوان الكتاب الأساسي "من خزين الذكريات"، ويتضمن الفصل الثاني فترة "ما بعد الحرب" أي بعد عام ٢٠٠٣ وسقوط نظام الطاغية صدام حسين، في حين يحمل الفصل الثالث عنوان الكتاب المطبوع "عندما كنت وزيراً للزراعة.

شعرت وأنا اقرأ الكتاب أن فيه بعض الخصائص المهمة التي تميزه، منها مثلاً:

•العفوية في سرد الأحداث وبعيداً عن الحذلقة، ولكنه مباشر ودون رتوش.

•الصراحة والصدق في التعبير عن تلك الأحداث وفي الموقف منها حتى لو كانت تمسه شخصياً.

•بساطة الجمل التي يتضمنها الكتاب، ولكنها مليئة بالمعلومات والآراء والمواقف.

•الخزين الحي للذكريات ابتداءً من الطفولة ومروراً بفترة التلمذة والدراسة والحياة الأكاديمية والعيش في ظل النظام الدكتاتوري والحروب والحصار والخوف من الحاضر والمستقبل.

•الحب للوطن، للناس، وللأرض التي سار عليها وهو طفل صغير، والنهر الذي سبح فيه وهو صبي وشاب يافع، والوفاء لأصدقاء الطفولة والصبا والشباب والحياة العملية.

•ويتلمس القارئ أخيراً وليس آخراً التطور الفكري والسياسي الذي شهدته مراحل حياته والمواقف الصعبة التي واجهها والقضايا التي لا يزال يتحرى عن إجابة عنها ولم يستح أو يتردد عن ذكرها.

قرأت الكتاب وكان ما يزال مسودة وأبديت ملاحظاتي المتواضعة لصديقي الكاتب بكل صراحة ودٍ واحترام. ولهذا سأحاول أن أكون بذات الصراحة في محاولتي الكتابة عن صيغته الجديدة. لقد أعطى الكاتب المسودة لأكثر من صديق وأبدى البعض ملاحظاته واستفاد منها دون أدنى ريب. وهي ظاهرة صحية في أن يسعى الإنسان إلى معرفة رأي الأصدقاء وملاحظاتهم النقدية لما يريد أن ينشره وفيها الكثير من التواضع المحمود. والكتاب يستحق القراءة لأنه شهادة حية، ومن زاوية رؤية الكاتب، لأحداث تمتد قرابة ستة عقود، وأهميتها أيضاً تبرز في معالجته لوضع العراق في فترة حرجة واستثنائية من تاريخ العراق، في أعقاب إسقاط النظام الدكتاتوري في حرب غير متكافئة طبعاً عبر القوات الأجنبية.

حين تبدأ بمطالعة الكتاب تشعر برغبة المواصلة. فوصف حياة طفل وصبي في مدينة المجر الكبير التابعة للواء العمارة (ميسان) والركوب بزورق صغير صوب المجر الصغير أو بالمشحوف صوب الأهوار وحياة المدينة الريفية الصغيرة بحميرها وبعيرها باعتبارها وسائط النقل الأساسية، هي مسألة نادرة حقاً لا تتوفر باستمرار لقارئة العربية أو قارئ العربية. ففي الكتاب وصف جميل لهذه المدينة ونشاطها التجاري وعلاقتها بالبصرة والمدن المجاورة وحركة الناس وهمومهم وتطلعاتهم، فيه وصف للمجر الكبير لسوقها وأزقتها وشوارعها غير المبلطة وتلك التي بلطت حديثاً وبيوتها ونخيلها وبساتينها والنهر الذي كان يسبح فيه مع بقية أقرانه. حين تقرأ ذلك تشعر بدفء الحياة والناس ومشاعر الود التي تميز علاقات الناس ببعضهم وتجمع شملهم. يحدثك الكتاب بعفوية وصدق عن العلاقات الطبيعية والودية بين السنة والشيعة والصابئة المندائيين، إذ لم يشعر الفرد هناك بأي تمييز بين هذه الطوائف. ثم يتحدث بحس إنساني عن انعدام التمييز بين الناس على أساس الدين أو المذهب حين أشار إلى المواطن والطبيب المسيحي السيد عزت وزوجته المواطنة والطبيبة جوزفين، وكلاهما كان قد أقام علاقات طيبة مع الناس في المجر الكبير واحباهما الناس كثيراً لأنهما قدما خدمات طيبة للناس، علماً بأن السيدة جوزفين كانت وفي تلك الفترة تظهر سافرة في شوارع وسوق المدينة ولم يكن لأحد أن يخطر بباله الاعتراض عليها. ولكن لم يفت الكاتب أن يدلنا على واحدة من أكثر المشكلات التي يعانيها الشرق الإسلامي المتخلف، وأعني به الموقف من المرأة. فهي ليست حبيسة العباءة السوداء القاتمة وحبيسة المطبخ والدار وتربية الأطفال فحسب، بل هي لا تعرف الشارع والعمل أيضاً. كان هناك بعض النسوة اللواتي استطعن فرض أنفسهن على المجتمع لقوة شخصيتهن أو لحاجة ماسة فرضت نفسها على العائلة، ومن بينهن يبرز اسم "فهيمة" التي تتعامل بالسوق فتبيع وتشتري الحبوب والمنتجات الحيوانية، و"غنمة" التي كانت تبيع الأعشاب الطبية في باحة السوق.

يقدم الكاتب لنا صورة حية وواقعية عن مراسيم الزواج والأعياد وعن طقوس عاشوراء واللطامة، والمواكب التي تتوجه سنوياً إلى كربلاء للتعبير عن حزنها لمأساة الحسين وعائلته وصحبه التي وقعت قبل قرون كثيرة. ثم يتحدث عن شهر رمضان ولياليه المقمرة والمنعشة المليئة بالحركة والزاهية بلياليها والمنعشة للأطفال، وعن الأعياد وفرحة الأطفال بها وبالعيدية والمراجيح والبدلة والحذاء الجديدين أو النظيفين والزيارات بين الأقارب والعائلات الصديقة وصنع الكليجة والأكلات الرمضانية الطيبة والاستثنائية والزلابية والبقلاوة وشعر البنات. ولا شك في أن لعبة المحيبس كانت تهيمن على مقاهي المدينة ورجالها فقط.

يقدم لنا الكاتب صورة عن التعليم والمعلم وعفوية الحياة في مثل هذه المدينة الصغيرة الخالية من كل ثقافة حديثة، وطيبة هؤلاء المعلمين وتأثيرهم الطيب والوطني على التلاميذ. ولكنه يدلك بصوت هادئ منغم وواضح على البؤس والفاقة والحرمان والبطالة التي شاهدها في هذه المدينة، وعن الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويقول بأن عائلته كانت واحدة من تلك العائلات الفقيرة التي اغتنت فيما بعد بعمل الوالد التجاري. لم يتردد عبد الأمير عن الحديث عن حبه الأول وولهه الصبياني الجميل بساجدة، هذه البنت الشابة التي تكبره كثيراً ليؤكد لنا بعفوية أن الحب هو رحيق الحياة منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض الطيبة وسيبقى كذلك. ولهذا كان الحب رفيقاً دائماً وطيلة حياة الكاتب، خاصة أثناء دراسته في ألمانيا، ولم ينج منه حتى عندما كان وزيراً.

يشعر القارئ بان الحياة كانت حينذاك تعجل في دفع الإنسان نحو الرجولة المبكرة. فما أن دخل عبد الأمير الصف السادس الابتدائي حتى أعطانا الانطباع بأنه أصبح يقرأ أشياء أخرى غير الكتاب المدرسي لجورجي زيدان ومصطفى المنفلوطي وجبران خليل جبران مثلاً، ويعي أشياء أخرى غير ألعاب الطفولة، وخاصة بعد أن تعرف على السياسي الشيوعي الراحل سامي أحمد العامري، وهو يكبره سناً، وعرف منه ماذا يعني الإقطاع واستغلال الفلاحين الفقراء والمعدمين وحياة البؤس التي يعيشها القسم الأعظم من سكان الريف. لقد بدأت السياسة تنفذ إلى رأس الصبي في وقت مبكر وتشغل باله، ثم تنمو صورة الواقع وتتكامل حين يدخل الثانوية في مدينة العمارة والكلية ببغداد العاصمة.

انتقل عبد الأمير الشاب المراهق إلى العمارة ليتسنى له دراسة المتوسطة والثانوية فيها لخلو المجر الكبير منهما، دع عنك خلوها من مدرسة متوسطة أو ثانوية للبنات في المجر الكبير حينذاك. وفي الثانوية توسعت مداركه وبدأ يشعر بوضوح وفي مدينة العمارة البائسة، رغم أنها كانت أكثر تطوراً من المجر الكبير أو الصغير، بؤس الناس وفاقة الفلاحين على نحو خاص وظلم الإقطاع. وكانت هذه الفترة أول تماس له مع الحزب الشيوعي العراقي دون أن يصبح عضواً فيه في أي من مراحل حياته، ولكنه لم يكن بعيداً عنه. لقد كان الحزب الشيوعي يملأ الساحة السياسية في العمارة وتجد أفكاره صدى لدى الناس، وخاصة في صفوف الطلبة، هكذا كان يرى عبد الأمير الحركة في الساحة السياسية في العمارة حينذاك، وهي نموذج لبقية أنحاء العراق. وحين هبت في بغداد انتفاضة ١٩٥٢ شارك طلبة الثانوية في العمارة فيها ولم يتخلف عنها، بل كان ضمن المنتفضين على ظلم الحكم الملكي وجوره على الفلاحين وتغييبه لحرية الناس والديمقراطية. حين اصطدم الرجل السياسي عبد الأمير بظلم نظام صدام حسين وما جرى فيه من انتهاك لحقوق الإنسان وخاصة حقه في الحياة والتعبير والعمل ...الخ، وجد بعض الفضائل في النظام الملكي بالمقارنة مع ما حصل فيما بعد سقوطه، إذ يقول في هذا الصدد ما يلي: " وحينما أعود بالذاكرة إلى سنوات الأربعينيات والخمسينيات، وما تميز به الوضع الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لأهالي المجر الكبير في ذلك الحين، تتكرر أمامي حالة القناعة والرضا والابتهاج والانشراح التي كان يتصف بها أولئك الناس، على الرغم مما كانوا يعانونه من حرمان مادي وعوز وشظف في متطلبات المعيشة....، لكن الإنسان في الوقت الحاضر يفتقد غالباً إلى السعادة والرضى والانشراح، بل تجده دائماً مهموماً مكلوماً قلقاً لا يستقر على حال . وما أكثر أسباب القلق والاكتئاب والخوف التي يتعرض لها الإنسان في عصرنا الراهن.". (عندما كنت وزيراً، ص ٤٩/٤٨).

وبقدر ما هي صحيحة من جانب، هي خاطئة بقدر أكبر من جانب آخر، وهي إحدى الإشكاليات التي يعانيها العديد من الكتاب، إذ أن بعضهم ينسى بأن النظام الملكي الذي داس على الدستور العراقي الذي أقر في عام ١٩٢٥ وأصدر قوانين مناهضة لمضمون وزور عن عمد الانتخابات وعمق الاستغلال في الريف وصادر الحريات، كان قد أسس قاعدة لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أولاً وأسس للعنف وعدم احترام القوانين والحياة الدستورية، فهو القاعدة السلبية التي شكلت شخصية العراقي في ظل الملكية وما بني عليها لم يكن أفضل منها، بل أسوأ بكثير. لا شك في أن الفارق بين العهد الملكي والعهد الصدامي كبير جداً كبعد الأرض عن السماء، ولكن الأساس المادي واللبنة الأولى لما حصل فيما بعد ناشئ تاريخياً في العراق وقبل الملكية ولكنه استكمل في عهد الاحتلال البريطاني والملكية والإقطاع في العراق. هذا ما يفترض أن نعيه ونحن نكتب عن تلك الفترة. فأنا أعرف معاناة جيل الأربعينيات والخمسينيات ومعاناة الإنسان السياسي على نحو خاص، ولكن معاناة الفلاحين والعاطلين عن العمل والهاربين من ظلم الإقطاعي إلى المدن ومطاردة الشرطة لهم لإعادتهم إلى "سادتهم الإقطاعيين" ما تزال حية في الذاكرة.

وما تزال هوسة نوري السعيد من راديو بغداد، وأنا مع حشد من المبعدين في المنفى في مدينة بدرة على الحدود العراقية الإيرانية، ترن في أذني وهو يصرخ بهستيريا "دار السيد مأمونة" وكأن لم يكن واثقاً من استمرار دار السيد، ثم حديثه البائس عن سبل معالجة الإقطاع عبر الزمن من خلال توريث الأراضي لأبناء الإقطاعي بعد موته، إذ أن الأخير يتزوج كثيراً وينجب كثيراً، وبالتالي يحل مشكلة الأرض عن هذا الطريق ناسياً جموع الفلاحين الفقراء المعدمين والمحرومين من الأرض الزراعية. إن القناعة التي يتحدث عنها الدكتور العبود عند الناس حينذاك لا تعبر عن وعي بالواقع الذي كانت الغالبية العظمى من الناس تعيش فيه، بل تعبر عن تخلف في وعي الواقع القائم ومشكلاته والبؤس الذي كان يلف الجميع. ولم يكن المثقفون مخطئين حين كانوا يشيرون الى أن العراق مبتلى اجتماعياً بثلاث علل، وهي: الجهل والفقر والمرض.

يعود الكاتب إلى نفس الموضوع ليؤكد على الصفحة ٦٩ من كتابه "عندما كنت وزيراً" بشأن أحداث الفترة الواقعة بين ١٩٤٥-١٩٥٨ وعن الحماس القومي لمقارعة النظام والاستعداد للتضحية والاندفاع نحو القضايا القومية ما يلي:

" اكتشفنا بعد فترة متأخرة، وبعد فوات الأوان، أن الفترة بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٨ هي فترة جيدة في تاريخ العراق المعاصر، لو أخذنا تطبيق القانون واحترام النظام من قبل الدولة والشعب، ومدى تطبيق أسس النظام الديمقراطي والتقيد بها من قبل السلطة والشعب في دولة نامية كالعراق في ذلك الوقت و أساساً للقياس ومقارنة ذلك مع ما كان يحصل في الدول المجاورة والدول النامية.

وحتى لو أخذنا النظام السياسي والنظام الاقتصادي في تلك الفترة بنظر الاعتبار، فقد تمخضت تلك الفترة عن انتخاب البرلمان ووجود عدد من الأحزاب السياسية، ووجود عدد كبير من الصحف التي كانت تنتقد الدولة، وحتى السياسة الاقتصادية فبالرغم من شحة الموارد المالية آنذاك أقيمت قاعدة جيدة من البنى الارتكازية من الطرق والمواصلات والاتصالات والمدارس والمستشفيات وغيرها من المشاريع التي نفذت من قبل مجلس الإعمار". (ص ٦٩/٧٠ من نفس الكتاب) وهو في نفس المقطع ينتقد الأحزاب السياسية التي اختارت العنف طريقاً للوصول إلى السلطة.

ومع أن كلمة لو التي وردت أكثر من مرة شكلية وسفسطائية إلى حد اللعنة، لأن الأمور جرت باتجاه آخر، فسأحاول هنا أن أحاور الصديق الفاضل بعدة نقاط، وأهمها:

لم يكن خيار العنف الذي وافقت عليه الأحزاب السياسية العراقية وتبنته في النضال ضد السلطة الملكية إلا نتيجة ممارسة السلطة للعنف في أعقاب الحرب العالمية الثانية وابتداء من مظاهرة حزيران من عام ١٩٤٦ وسقوط عدد من الضحايا. ثم تكرر المشهد في إعدامات أقطاب حركة مايس ١٩٤١، ومن ثم إعدام الضباط الكُرد الأربعة الذين شاركوا في حركة الشعب الكردي بقيادة الملا مصطفى البارزاني في عام ١٩٤٦ رغم الوعود التي أعطيت بعدم إعدام من يسلم نفسه، ثم تكرر العنف في وثبة كانون ١٩٤٨ ومعركة جسر العتيك (جسر الشهداء) المعروفة لنا جميعاً، وأعتقد إن قصيدة الجواهري ما تزال ترن في أذن كل عراقية وعراقي من ذلك الجيل حين غنى "أخي جعفر" الذي استشهد في هذه الوثبة. لنتذكر معاً محنة مواطنات ومواطني يهود العراق حين تآمر عليهم النظام العراقي وبريطانيا وإسرائيل معاً لتهجيرهم قسراً وعنوة عبر قانون إسقاط الجنسية العراقية وسرقة ونهب أموالهم المنقولة وغير المنقولة واستخدام الشرطة لإيصالهم على شركة الطيران التي كان لتوفيق السويدي حصة فيها، ثم لنتذكر عام ١٩٤٩ حين جرى إعدام عدد من قياديي الحزب الشيوعي العراقي، ثم شهداء وسجناء انتفاضة ١٩٥٢, ولن ننسى شهداء مجزرتي سجن الكوت وسجن بغداد في عام ١٩٥٣ التي نظمت من قبل حكام بغداد، وبعدها كانت انتفاضة ١٩٥٦ التي يشير إليها الدكتور العبود أيضاً، إضافة إلى زج المئات من المثقفين والطلبة في السجون وفي المعسكرات والنفي. حينها لم تجد القوى السياسية العراقية طريقاً غير الطلب من الجيش لدعم قضية الشعب، الذي كان بدوره قد تحرك في الخمسينيات لينظم نفسه ويعمل للقيام بانتفاضة عسكرية تحققت في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨, كم كان بودي أن يعود الصديق إلى مراسيم حكومة نوري السعيد في عام ١٩٥٤ بعد أن حل المجلس النيابي وأجرى انتخابات جديدة وزيف الانتخابات وأخرج قوى المعارضة من البرلمان وأصدر مجموعة من المراسيم التي صادرت الحريات الديمقراطية تماماً وأسقط الجنسية عن مجموعة من الوطنيين الديمقراطيين العراقيين.

لم يتعرض السياسيون ضد إقامة البنى الارتكازية في العراق، بل اعترضوا على المشاريع التي كان يراد إقامتها للأغراض العسكرية. وكانت المطالبة كبيرة بإقامة مشاريع البنية التحتية من كهرباء وماء وهواتف ونقل ومواصلات وشوارع ...الخ. ويبدو أن الدكتور عبد الأمير العبود، وهو اقتصادي لامع وعميد سابق لكلية الاقتصاد في البصرة أن يقول بأن السياسة الاقتصادية للحكومة كانت جيدة، في وقت كانت تمثل مصالح كبار الملاكين والإقطاعيين، وأن تنفيذ المشاريع الاقتصادية لم يصل في حينها لم يتجاوز الـ ٢٥٪ مما كان مفروضا إنجازه. ويمكنني أن أحيل الدكتور العبود على رسائل الدكتوراه التي وضعت في الستينيات أولاً وإلى كتابات الدكتور الراحل محمد سلمان حسن أو كتاباتي عن هذه الفترة أو رسالة الدكتوراه التي أنجزها العبود نفسه في مجال التجارة الخارجية والعلاقات الاقتصادية الدولية. التي أحتفظ بنسخة منها باللغة الألمانية.

وفي الوقت الذي يكتشف الزميل بعض الجوانب الإيجابية في فترة الملكية ويؤشر جوانب سلبية فيها أيضاً، ينسى الإرهاب والقمع وعمل التحقيقات الجنائية والجواسيس حينذاك. ولكنه يتذكرهم فجأة حين يجري الحديث عن توزيع البيانات، حيث يقول: وكان الحماس لمقارعة النظام يلهب الجميع. فترى مجموعات من الطلبة في نقاش محتدم خلال فترات استراحتهم حول مساوئ نظام الحكم وارتباطه بالاستعمار، والبعض منهم يحمل النشرات السياسية ودسها في جيوب زملائه خلسة، تفادياً لمتابعة رجال الأمن، ...". (نفس الكتاب ص ٦٨). والأسئلة المنطقية التي تفرض نفسها هنا، هي : لماذا تجبر القوى السياسية على إصدار نشرات سرية، ولماذا لا يحق للناس إصدار نشراتهم بصورة علنية؟ ولماذا توزع هذه النشرات خلسة بعيداً عن أعين الرقباء؟ ولماذا كانت هناك شرطة سرية تتابع العمل السياسي من هذا النوع؟ ولماذا كانوا يحاكمون ويزج بهم في السجون حين العثور على بعض تلك النشرات؟ ألا يرى الزميل، وقد عاش هذه الفترة وساهم في العمل السياسي بشكل مستقل ولكن ليس بعيداً عن الحركة الديمقراطية العراقية والحزب الشيوعي العراقي، وأعتقد أنه يرى ذلك تماماً، بأن كل هذا كان مخالفاً للائحة حقوق الإنسان التي ساهم العراق بوضعها في عام ١٩٤٨ وصادق عليها رسمياً؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة تمنحنا رؤية واضحة عن طبيعة النظام الحاكم في العراق حينذاك. ولكنه في الوقت الذي لم يكن أسوأ مما جاء من بعده في الستينيات والسبعينيات، لكنه كان اللبنة الأولى في صرح العراق الحديث والدولة الملكية الدستورية التي بني عليها ما جاء من بعدها.

لم تكن الفترة الواقعة بين ١٩٤٥- ١٩٥٨ مرحلة واحدة متماثلة، بل كانت تتضمن أربع مراحل متباينة نسبياً

١٩٤٥-١٩٤٧ حيث نشأت بعض الحريات الديمقراطية وتم تأسيس بعض الأحزاب السياسية ومنع بعضها الآخر.

١٩٤٨-١٩٥٣ حيث سادت القوة والعنف في مواجهة الشعب وضرب الوثبة والانتفاضة ولإعدامات وسجون وعدد كبير من السجناء السياسيين.

١٩٥٣-١٩٥٤ حيث جرت محاولة لكسر الإرهاب وإعطاء بعض الحريات الديمقراطية وبعض الصحف مثل البلاد والأهالي وجريدة الوادي والرأي العام، إضافة إلى الصحف الحكومية الرسمية وغير الرسمية.

١٩٥٤ ١٩٥٨ عاد الإرهاب بقوة في ممارسات السلطة السياسية تمهيداً لإقرار الدخول في حلف بغداد ومواجهة الوضع المتطور في الساحة السياسية العراقية.

لم تكن الحركة الوطنية متطرفة في طروحاتها، بل كانت سياسة الدولة خارج إطار الدستور والقوانين والشرعية، ولم تكن المجالس النيابية سوى برلمانات مزيفة، هكذا تحدث عنها نوري السعيد نفسه حين تحدى من يستطيع الوصول إلى البرلمان دون دعم الحكومة مباشرة.

السياسة التي مارستها الحكومات المتعاقبة في العهد الملكي لم تكن ديمقراطية، وأجبر الشعب على النضال من اجل حقوقه. ولو لا ذلك النضال لما وافقت بريطانيا على مناصفة عوائد النفط الخام في عام ١٩٥٢ واعتبار القرار رجعياً من عام ١٩٥١، بعد أن كان يدفع للعراق ٤ شلنات ذهب عن كل برميل يصدر من العراق لصالح الشركات الدولية.

لم يكن الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال والحزب الشيوعي يطالبون بإسقاط النظام الملكي، ولكن النظام الملكي كان يريد تصفية هذه الأحزاب، وبالتالي كان عليها أن تناضل ضد هذا النظام. النظام الملكي مسؤول عن الإساءة للدستور العراقي وإرادة الشعب وتزوير الانتخابات وإصدار مراسيم مخلة بالدستور ومصالح الشعب. وانتفاضة الجيش العسكرية في عام ١٩٥٨ سببها سياسة الحكم حينذاك، وسببها الظلم الذي تعرض له الشعب، ولهذا لم تكن الفرحة بانتصار ١٤ تموز، التي شارك في الفرحة عفوياً الطالب في كلية الحقوق عبد الأمير العبود، عبثية ودون مبررات. لقد كانت الغالبية العظمى من الناس تعاني الفقر والفاقة وظلم الإقطاعيين وإرهاب التحقيقات الجنائية، بالرغم من غنى البلاد بنفطها وبشرها وإمكانياتها الزراعية، وبالرغم من وجود نظام ملكي دستوري وقوانين ومجلس نيابي.

أدرك تماماً إن الوضع المأساوي الراهن الذي يمر به الشعب حالياً هي التي تجعل الحنين للماضي من جهة، والمقارنة مع الماضي من جهة أخرى، قضية إنسانية مشروعة، ولكنها من الناحية التاريخية غير دقيقة بأي حال، وأن الصديق الأستاذ العبود يشاطرني الرأي، أرجو ذلك في الأقل.

مظاهر الثقافة السريانية

فؤاد يوسف قزانجي
استاذ في المعلومات والتاريخ

إن ابرز مظاهر الثقافة السريانية في القرون الميلادية الأولى يمكن إيجازها على النحو الآتي:

أولا : ارتباط ثقافة السريان وعلومهم وآدابهم بالجذور الحضارية لوادي الرافدين و خاصة الحضارات الآرامية والأشورية والبابلية. وقد عبر اهل العراق عن جذورهم الحضارية في آدابهم وفي كتابة تاريخهم العريق. ففي حقل الأدب والشعر عرف السريان الأوزان الشعرية ومارسوا الشعر الحر المشابه للشعر السومري او البابلي، قد نظم احد المثقفين السريان وهو برديصان شعراً رقيقاً بأوزان أوجدها أول مرة، وسار الاخرون عليها في نظم الشعر السرياني وأكمل الوزن الشعري السرياني الشاعر العظيم والفقيه مار افرام السرياني في القرن الثالث الميلادي، حيث تناول جميع الإغراض الشعرية بروح دينية وإنسانية وبلغ ما نظمه مار افرام ما يزيد على مليون بيت من الشعر. وهكذا تأثر الشعر السرياني بالشعر البابلي باعتماده على النظم بأوزان بسيطة حرة وكذلك اهتمامه باللازمة والتكرار أحيانا مثل الشعر الرافديني عامة وخصوصاً الشعر السومري. ولقد تأثر فيما بعد علماء اللغة العربية في الحيرة وبصرى والانبار ورصافا وغيرها في رسم الكتابة العربية او الخط العربي قبل الاسلام . اذ ان بداياته جرت بين الغساسنة وهم السريان العرب في الصحراء السورية ومركزهما بصرى ورصافا، او جرت في العراق في مدينتي الانبار والحيرة . وكان السريان قد بدأوا في تعليم العربية في بداية القرن السابع الميلادي في مدارسهم الى جانب اللغة السريانية، وعلى سبيل المثال فقد تعلم الشاعر المرقش اللغة العربية في الحيرة، وكانت بعض الرسائل والكتابات على القراطيس بالعربية تصحح في بلاط الملك النعمان الرابع . كما ذكر المؤرخون العرب وجود ثلاثة من المجودين في الكتابة العربية يعلمون الخط العربي في الانبار واتضح من خلال البحث ان أسمائهم تشير الى أصول سريانية . ويؤكد ذلك الباحث محمد سعيد الطريحي الذي يقول " ان العرب قبل الاسلام يدينون للحيرة بمعرفة فنها في الكتابة . ثم يمضي قائلاً : انه تشير النظرية الشمالية الحيرية الى ان جماعة من طي قاموا بوضع هجاء العربية على هجاء السريانية وعلموا الكتابة لأهل الانبار وعن هؤلاء تعلمها اهل الحيرة، ومن ثم انتقلت الى مكة والطائف قبل ظهور الاسلام . " ولا ننسى ان (ابجد هوز حطي كلم صعفص قرشت) هي الحروف السريانية التي نجدها لفظاً تشابه الحروف العربية، فقد استعملها العرب قبل الإلف باء تاء العربية.

ثانياً : عني السريان بالعمارة والبناء بدءاً ببناء الأديرة والكنائس الشرقية التي سعى فيها السريان الى ان تكون ذات طابع شرقي متأثر بالعمارة الآشورية والبابلية الباقية فاستوحوا من كل ذلك طرازا عراقيا من العمارة سمي بالطراز الحيري الذي يتميز بمعرفتهم في بناء القبب والأواوين والأعمدة المدورة المقرنصة التي ربما انعكست في أذهانهم من الفن الهلنستي والروماني في أبنية قصور مملكة ميشان الآرامية في الأهواز والخليج وكذلك بتأثير أبنية ومعابد مملكة حاطرا (الحضر) الآرامية –العربية. وقد أسهم الحيريون من السريان وغيرهم من سكان العراق في بناء اكثر من (٢٢٠) ديراً واكثر من (٥٠) كنيسة على طراز عراقي شرقي يخالف طراز الأديرة والكنائس في سوريا وفلسطين ذات الطراز الروماني. كما شارك الحيريون من سريان ونبط وغير سريان في بناء (١٧) قصراً كما أحصاها الباحث طالب الشرقي أبرزها قصور مثل الخورنق والسدير والأبيض وقديس وقصر عبد المسيح بن بقيلة صاحب الحيرة بعد مقتل ملكها النعمان الأخير عام (٦١٢ م). كما يعتمد الطراز الحيري باستخدام الطابوق أي الأجر المشوي بنوعيه العادي والفرشي أي العريض، كما يتميز بالأقواس والأواوين والفتحات العالية المستديرة، وكانت غرف الرهبان (القلايات) تبنى على شكل قبة تستقر على أربعة جدران عريضة، وهذا الطراز يستخدم ايضا في صدر الكنيسة حين تستقر القبة في اعلى سقف المذبح او المكان المقدس يتبعها بناء مستطيل لجلوس المؤمنين.

ثالثاً : التمسك بالتراث السرياني وباللغة السريانية الشرقية حتى الوقت الحاضر رغم الظروف الصعبة والنكبات التي واجهت الأديرة المنتشرة في العراق : خلف لنا السريان تراثاً ضخماً من المخطوطات التي ملأت مكتبات الأديرة والكنائس في معظم المدن الرئيسة في العراق وقطرايا وفرات –ميشان وجنديشابور (بيت لافاط) وعلى الرغم من ثقل الإحداث التي واجهتها الأديرة خصوصاً بعد سقوط بغداد في عهد هولاكو والعهد العثماني، فقد حافظت كثير من الاديرة على مكتباتها حيث كانت تخفيها في البيوت والقبور إثناء الأجتياحات والتعديات، واضطر بعض رجال الدين من نقلها الى مكتبات اخرى في العالم. إما اللغة السريانية الشرقية (السورث) فقد استمر سكان القرى والأرياف في شمال العراق بالمحافظة عليها وتلقينها لأولادهم وأحفادهم حتى استقلال العراق عام ١٩٢١ عندما سمح لهم بإدخالها في المدارس الابتدائية الأهلية، ثم في تدريسها، وأخيرا قلصت ضمن دائرة اللغة السريانية في المجمع العلمي العراقي .

رابعاً : العناية بالطب. بدأ الطب السرياني معتمداً على معرفة أهمية الإعشاب والنباتات وتجربتها عملياً بشكل متوارث أضيف إليها في القرن الرابع للميلاد ترجمات من الطب اليوناني وخصوصاً جالينوس الذي كان طبيباً واسع العلم في مجالات الطب المختلفة، وبعد أنشاء مدرسة جنديشابور من قبل الفرس وتدفق الأسرى من ذو الثقافة اليونانية الذين سبوا في انطاكيا، فان المدرسة تطورت الى كلية للطب خصوصاً في القرن السادس الميلادي حينما بدأت تدرس باللغة السريانية فأضيف إليها المعرفة المحلية في الطب وزاد عليها إنشاء أول مستشفى تعليمي في الطب بجانب المدرسة، حينما تخرج أطباء سريان ذوي علم في معظم فروع الطب آنذاك فغطى الأطباء السريان بلاطات الخلفاء الأمويين ثم العباسين وعلموا الطب الى الأجيال العربية القادمة. وكان جرجيس بن يختيشوع، على سبيل المثال قد استدعاه أبو جعفر المنصور ليكون طبيبه الخاص عام ٧٧٥ م ويقول مؤرخ الأطباء السريان والعرب ابن أبي اصيبعة : ان هؤلاء الأطباء أداروا البيمارستانات للمرضى وعززوا صناعة الطب وتفننوا في تدريس أصولها وكذلك في الاستنباط والاكتشاف وتنافسوا في التصنيف والتأليف وتعاونوا مع الأطباء المسلمين في تشخيص كثير من الإمراض كالجدري والحصبة والحمى القرمزية وزادوا في الأدوية الصيدلانية وكذلك في مجال التشريح والإمراض القلبية والدورة الدموية.

خامساً : العناية بالتعليم. وجدنا في العراق وميشان (الأهواز ومنطقة فرات ميشان والخليج) حوالي (٥٠) مدرسة معظمها يجري التدريس فيها بالأديرة حيث كان الاسقفة يمثلون الطبقة المثقفة في البلاد يشاركهم في ذلك طالبي الفلسفة والطب والأدب والفلك وغيرها وذلك منذ بداية القرن الخامس الميلادي وحتى القرن التاسع الميلادي، حيث كانت تعلم اللغة والثقافة السريانية والدين المسيحي والفلسفة والمنطق والرياضيات . وهذا العدد من المدارس يعتبر كبيراً قياساً الى بقية أقطار الهلال الخصيب وإيران . أشار الى ذلك المؤرخ عمرفروخ قائلاً " كان للسريان النساطرة في ما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم اللاهوت والفلسفة والثقافة اليونانية باللغة السريانية " كما اشتهرت مدرسة جنديشابور في الطب . إما اسكول مار ماري في بلدة دير قنى قرب العزيزية، فقد اشتهرت بتعليم الفلسفة والمنطق من أشهر معلميها إبراهيم قويري وإبراهيم المروزي الذي قدم في مدرسة حران وأبو بشر، متى بن يونس القناني الذي علم الفلسفة الى أشهر فلاسفة السريان والمسلمين أمثال يحيى بن عدي وأبو نصر الفارابي. وكان السريان يركزون في تدريسهم كالمسلمين على فلسفة الأخلاق وعلى التوافق بين الاديان السماوية والفلسفة اليونانية .

سادساً : الإسهام الفعال في حركة التأليف والترجمة التي أطلقها الخلفاء العباسيين الأول، خاصة بعد تأسيس أكاديمية بيت الحكمة عام ٨٠٠ م. وقد عمل السريان مع الفلاسفة والأطباء والعلماء من كل دين ولغة وأثنية في التأليف في حقول الطب والفلسفة والأخلاق والمنطق وكذلك في حركة الترجمة من السريانية ومن اليونانية الى العربية . وقد ألف، مثلا، حنين بن اسحق ٣٧ كتاباً وترجم اكثر من مائة كتاب، إضافة الى كتاباته رسائل أخلاقية ومعجماً للغة العربية للكلمات ذات الأصل اليوناني والسرياني. ويقدر عدد المشاركين في حركة الترجمة إبان عهد المأمون اكثر من مائتي فيلسوف وطبيب ومترجم اكثر من نصفهم من السريان.